ولتر سكوت

سير ولتر سكوت

في العصر الذى نبغ فيه من الشعراء كوبر وكراب و بليك و بارنز ، والشعراء الذين عرفوا فى الادب الانجليزى بشعراء البحيرات ، ثم واردز و ورث وكوليردج وسوزى وغيرهم ، تقع في تاريخ الأدب الانجليزى على صفحة مجيدة بل صفحات بيضاء لا بد من أن يعقدها كل مؤرخ يحاول أن يكتب فى صور الأدب التى ظهرت فى « الجزر المرجاء » عن رجل ظهر من سلالة من أشرف السلالات الايقوسية واضخمها حسبا وانبلها نسبا ، وكان حلقة وصل فى سلسلة يكون وحداتها من مرت بك اسماؤهم ثم يتابعهم بعد «ولترسكوت » وهو الذى نعنيه بالكلام، افذاذ من امثال لاندور وكامبيل ومور وروجرز ، ثم من بعدهم بيرون وشيلى ، ومن بعدها كيتس ؛ ثم رجال تلك المدرسة التى عرفت في انجلترا بالمدرسة الرومانتية الثانية

على أنك اذا أردت أن تحلل شخصية سير ولتر سكوت فانك لن تبلغ منها بغيتك الا اذا عرفت بدءا انها من الشخصيات المزدوجة ، فهو فى الشاعرية شاعر مجيد ، وفى التأليف الروائى كاتب من أمجد الكتاب الذين أنبتتهم الانسانية . على أننا لا ننسى مع هذا أن صفة الشاعرية قد امتزجت بكل نواحى نفسه فهو فى رواياته شاعر يصور لك بخياله الحقيقة التاريخية، فيخيل اليك أنك تقرأ

صفحات من الخيال الممتد بقوة التصور الى اقصى حدود اللا نهاية ؛ في حين انك انما تقرأ وصف بطل من الابطال او فارس من الفرسان ، أو تقرأ تحليلا لشخصية خادم أو سيد عضه الفقر و بقيت له عزة النفس ونعرة الحسب القديم أو تتغلغل في ناحية من نواحى التاريخ فتستقرىء صورة من صور الحياة الاجتماعية التى عاش فى ظلالها أجداده الايقوسيون فوق جبالهم الشامخة و بين ثلوجها ونجادها ومغاورها المخيفة ، ثم تتابعه فاذا بك امام قزم يروى عنه التاريخ بعض الشيء ؛ كل هذا وغيره تقع فيه على حوادث روائية ولكنك لن تستطيع أن تتخلص من شعور أنك تقرأ لشاعر كبير حاك الشعر فى سطور منثورة . فهو فى قرارة نفسه شاعر وفى حياته الاجتماعية روائى تغلب فى روايته الشاعرية المستمكنة من كل نواحى نفسه الفياضة بالمعانى الخالدة الجياشة بالآمال الوثابة الى الذكريات والى مجد ايقوسيا القديم يحييه في الأذهان بالشعر الخالد وبالرواية مازجها الشعر وصنع فيها الخيال ما يصنع السحر بالألباب .

على أنك ان وقعت فى رواياته على الشعر بارزا وعلى الشاعرية متجلية فى أبهى معانيها ، فانك لا تقع في شعره على أثر لصفة الرواية التى نال بها أكثر شهرته العالمية . وعندى أن هذا دليل قاطع على أنه فى حقيقته شاعر اتخذ الرواية ذريعة على مدافعة الحوادث التى حاكت من حياته مأساة طويلة المدى بعيدة الأثر ممضة لنفسية شاعر ماؤ نفسه الشاعرية .

على أنه كان في شاعريته مثل خالد لبيئته التى نشأ فيها ولصفات آبائه التى تغلب فيها النزعة الى الرنات الحزينة البعيدة الغور فى النفس . ولكنها رنات إن ما زجها الأسى ونفذ الى أعماقها الحزن الأليم ، ففيها من جمال الطبيعة قدر يجعل ذلك الحزن اشبه بالمرح الهادىء ، ولكنه هدوء يهز أعماق النفس هزاً عنيفاً . واليك مثال على هذا نقتطعه من قصيدته الخالدة « سيدة البحيرة »

He is gone on the mountain,
He is lost to the forest
Like a summer dried fountain,
When our need was the sorest.
The fount reappearing
From the raindrops shall borrow,
But to us comes no cheering,
To Duncan no morrow.

* * *

The hand of the reaper
Takes the ears that are hoary,
But the voice of the weeper,
Wails manhood in glory,
The autumn winds rushing
Waft the leaves that are serest,
But our flower was in flushing
When blighting was nearest.

* * *

Fleet foot on the correi,
Sage counsel in cumber,
Red hand in the foray,
How sound is thy slumber!
Like the dew on the mountain,
Like the foam on the river,
Like the bubble on the fountain
Thou art gone, and forever.

* * *

هذه صورة من شاعرية ملكوت ومن عبرات نفسه ما نجده لها في الصياغة الكلامية من مثيل اللهم الا عند الطبقة المنتقاة من الشعراء الذين تفجر الانسانية

بانهم منها ، او بالاحرى الذين لهم الحق أن يفخروا على الانسانية بانهم كانوا ابواقها الذين عبروا عن مشاعرها وترجموا عما تحس فى قرارة نفسيتها من معان ومن آلام ومن مسرات لولاهم لبقيت مطوية فى اعماق النفس طيا لا نشور له ، ولظلت مدفونة دفنا لا أمل فيه لبعث ولا حياة أخرى .

***

على أنه في كل هذا كان من أئمة الاسلوب الرومانتيكي ومن أكثر العاملين على ذيوعه . فهو فى شاعريته وفى روايته نسيج وحده . ولكنه من حيث الأسلوب اصيل فى المذهب الرومانتيكي الحديث ، ومن أكثر العاملين على أظهار محاسنه الادبية والنزول بها من سماء التخصيص الى عالم التعميم الصرف ، فكأنه بذلك من أول الذين أذاعوا هذا المذهب وعملوا على نشره بين الناس جميعاً ، بعد أن كان مقصوراً على طبقة منتقاة من الأدباء والمشتغلين بالأدب .

ولد وولتر سكوت فى « ادنبرج » . وظل طول طفولته نهبا للامراض وغرضا للسقام ترميه بآلامها ومضاتها ، وما زالت تغالبه ويغالبها حتى استقوى عليها . غير أنها تركت به أثراً غير زائل اذ خلفته في الخليقة أعرجا . غير أن كل ما انتاب سكوت من عجز فى الطبيعة ونقص فى التكوين قد استعاضه بان هيأت له الظروف حياة ملؤها هواء طاق في ريف ايقوسيا حيث اكب على الكتب يقرؤها ويقطع بها وقته ، فعوض عليه ذلك من ناحية أخرى ما أفقدته السقام من قوة الفهم وحدة الذهن . وكان هذا سببا فى ان يستعمق فى درس طبائع أهل الريف ويعرف تقاليدهم والكثير من اخبارهم التاريخية . تلك المعلومات الاولية التى انتجت فيما بعد اروع ما أخرج سكوت فى رواياته من صور الحياة كما ورثها عن آبائه الاقدمين .

ونشأ في المدرسة العليا وفى جامعة ادنبرج . وأريد به أن يكون محاميا ودخل فى سلك المحامين سنة ١٧٩٢ . غير انه لم يكن ميالا بطبعه لمهنته هذه ولكنه اخذ ينفق وقته في الطواف في انحاء ايقوسيا اما لمهمة يؤديها واما لمجرد التسلية وقتل الوقت .

وكان أول عمل أدبى له ترجمة الرواية « جوته » المعروفة باسم « الدم والرعد » وهى رواية احدثت أثرا كبيرا في المانيا لدى ظهورها . وكان ذلك فى سنة ١٧٩٩ وكانت الترجمة صحيحة وفيها كثير من الجمال الادبى . غير أنه أظهرها فى عصر لم يكن اتجاه الأدب الانجليزى فيه مشجعا على استمرار شيء من منتجات الالمان الأدبية . و فى سنة ١٨٠٢-١٨٠٣ نشر قطعا شعرية بعنوان Ninstrelsy of the Scottish Border وهى مجموعة شعرية لها قيمة أدبية تاريخية كبيرة غير أنها تدل فى أخص ما تدل عليه على الاتجاه الذى كان يتجه فيه عقل سكوت . وفيما بين سنة ١٨٠٣ و ١٨٠٥ أظهر ديوانين شعريين تمازجت فيهما التصورات القديمة التى كان قد أثبتها فيما كتب من قبل بمبتكرات خيالية في حياة البطولة التى عاش فى ظلالها اهل ايقوسيا في العصر القديم . وكان ثانى هذين الديوانين بديوان اسماه The Lay of Last minstrel ولقد حاز بهذا الديوان نجاحا وأصاب شهرة ، اذ ظهر للنقاد بعد قليل أن طريقة سكوت فيه قد بز بها كل الشعراء الذين سبقوه وانه لم يسبق بمثله فى كل ما يروى تاريخ الآداب التى ذاعت لعهده من صور الأدب . ولقد ثبت فى روع المشتغلين بالأدب إذ ذاك أن ولتر سكوت لا يمكن أن يكون شيئاً ما لم يكن أديبا ويتخذ الأدب فى الحياة مهنة . على أن ذلك كان صحيحا من كل الوجوه . فان « أديب الشمال » قد حاز باشعاره هذه مكانة زادت في صدور اهل الأدب مع الزمان ولم يفقد شيئاً منها حتى هبط الى الرمس عظيما فى موته كما كان عظيما فى حياته .

ونشر ديوانه Marmion سنة ١٨٠٨ وسيدة البحيرة The Lady of the Lake في سنة ١٨١٠ . وليس أدل على ما أحدثت هذه الأشعار من أثر في الأدب الانجليزى من أن أجور النقل فى عربات البريد قد زادت زيادة فاحشة اذ تقاطر الناس الى الاماكن التي وصفها سكوت في اسفاره يحجون اليها كما يحجون الى اماكن مقدسة يقضون بزيارتها حق الذكرى والعظة . وظهرت بعد ذلك قطعته المشهورة Rokeby سنة ١٨١٣ وقطعته الاخرى « سيد الجزيرات » — The Lord of the Isles سنة ١٨١٤

وفى ذلك الحين ظهر شاعر عظيم من شعراء الانجليز هو « اللورد بيرون » فتحولت بظهوره الانظار بعض الشيء عن سكوت فحول همه الى كتابة رواياته الخالدة فحاز فى ميدانها نجاحا عاليا لم يكن نجاحه فى عالم الشعر مقيسا به الا اشبه بقبس ضئيل اذا قيس بشمس مضيئة وهاجة . على أن نجاحه في الشعر لم يقتصر على أن ينال صيتا بعيد المدى ، بل عاد عليه بأرباح مالية عظيمة لم يسعد بمثلها شاعر قبله . ولقد تكلم فى هذا كثير من النقاد وقارنوا بين سكوت و بين واردز وورث وكولبردج . غير انهم انتهوا بفكرة أن سكوت قد استطاع أن يبهر الناس بشيء جديد امكنه ان يعبر عنه فى اسلوب سهل ممتنع أرضي فى الناس نزعتهم الى السهولة وعدم اعمال الفكرة فى فهم المرامى التى رمى اليها فى أشعاره . فى حين أنه وارد زوورث وكولبردج قد عمدا الى المعانى العليا يستمدان وحيها ثم يصبانها فى قالب من الشعر يمتنع على غير العريقين فى الأدب فهمه واستيعابه. غير أنه مهما قيل في منزلة سكوت بين أدباء الانجليز فهو في الشعر من افذاذهم وفى النثر والرواية يعد فى طليعة الذين حولوا تيارات الأدب في اتجاهات جديدة

***

لا يمكن لأحد أن يتكهن عما كان من الممكن أن يكون مستقبل سكوت لو

فى الادب الانجليزى لو أنه لم يجبر على أن يترك الشعر بظهور « بيرون » . على أن التكهن فى مباحث الادب كالتكهن فى مباحث العلم ، اسراف وظلم . اما الحقيقة الواقعة فهى أن ظهور بيرون قد حول نظر الاديب الايقوسى الكبير الى ملفات اوراقه القديمة فعثر فيها على مخطوطة كان قد أسماها « ويفرلى » Waverly فاكملها ونشرها رواية تاريخية سنة ١٨١٤ . وكان هذا مبدأ خروج سكوت من عالم الشعر ليلج عالم القصص .

***

إن النجاح الذى اصابه سير ڤولتر سكوت فى رواياته يعد من مدهشات التاريخ الادبى فى كل العصور و بين كل الأمم . فان تاريخ روايته « ويفرلى » يقرب من أن يكون قصة خيالية . فانه عندما كان في أوج شهرته كشاعر ، تنكب طريق الشعر هنيهة واكب على فصول من رواية أختمرت فكرتها فى رأسه وأخذ يكتب فصولها الاولى . و بعد أن أتم بضعة فصول منها اطلع عليها أحد اصدقائه النقاد فلم يشجعه على المضى فيها إذ أبان عن رأيه بصراحة فكان على غير ما يطمع فيه سكوت ، فاخذ ما كتب والقاه فى احدى زوايا مكتبه . غير أنه في سنة ١٨١٤ عند ما رأى أن جمهور القراء قد أخذ يتحول الى شاعر آخر لا يقل عنه مواهب ، بل يمزه جاذبية ، فكر فى أن يتبع فى الأدب طريقا آخر . و بينما هو يقلب أوراقا قديمة وقع على مخطوطته التى تركها من قبل . ثم فكر فى أن يكملها وعكف عليها و وافر عليها كل قواه حتى انه لم يمض اسبوعان حتى كان سكوت يكتب فى الفصول الاخيرة من الجزء الثالث من « ويفرلى أو منذ ستين سنة » Waverly, or tis Sixty years Since. ثم طبعت ونشرت فى شهر مارس سنة ١٨١٤ . ولقد قدر للرواية نجاحا عظيما . وكان نشره الرواية من غير ان يذكر على غلافها اسم مؤلفها قد دفع الناس الى الحدس لعلهم يعرفون ذلك العظيم الذى كتب ويفرلى . ولقد اتبع هذه الطريقة فى كل رواياته التى نشرها

بعد ويفرلى مخفيا اسمه تاركا الناس في حيرة من امره حتى أعلن عن ذلك في مأدبة غداء في ادنبرج رأسها سكوت نفسه في ٢٣ فبراير سنة ١٨٢٦ .

ولن نستطيع أن نذكر كتابا ظهر في عالم التأليف الروائي فكان أكثر من ويفرلى جذبا للقراء وامتاعا لنزعاتهم وارضاء لشهوة الاستطلاع فيهم . وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يستطع ناقد واحد أو مؤرخ في تاريخ الادب الانجليزي ان يكون فكرة في القيمة الادبية التي كانت لهذا الكتاب عند قراء ثلاثة أرباع قرن نشط فيه الادب في نواحي العالم وكثر فيه الكتاب كثرة لم يعهدها تاريخ الآداب في عصر آخر . ونجد فوق هذا أيضاً ان الروايات التي نشرها سكوت بعد ويفرلى على اختلاف ضروبها لم تزد ويفرلى الا قيمة بل ساعدت القراء على استظهار محاسن ويفرلى من كل الوجوه أدبياً وفنياً واسلوبياً . وكان في الادب الانجليزي قصص خيالي وكان فيه روايات تاريخية وأخرى غير تاريخية . ولكن قدر لسكوت ان ينال الفخر الاكبر في أن يكون اول واضع لتلك الطريقة التي جمعت بين القصص الخيالي والرواية التاريخية فكانت صورة موحدة بلغت من كمال الفن الروائي الذروة العليا .

وظل سكوت أحد عشر عاما يعيش عيشا هادئاً ناعم البال بما أصاب من شهرة ليه فخر ومن نجاح يعقبه نجاح من غير أن يكدر صفوه حادث أو يصيبه من الدنيا رهق . وأخذ يصدر رواياته بنسبة روايتين كل عام . ففي سنة ١٨١٦ اخرج روايته The Black Dwarf اى القزم الاسود وروايته Old Mortality ـ ولا يمكنك أن تعرف مقدار ما أثرت هذه الروايات في انفس قرائها منك اذا عرفت ما أجاب به لورد هولاند اذا سئل عن رأيه في ما يكتب سكوت فقال

« أتسألونني رأيي ! ! لم يذهب أحد من أهل منزلي الى الفراش ليلة أمس . لم ينم من شيء الا آلامي التي أعانيها من مرضي » .

ويقال بأن كتابات سكوت في ذلك الحين كانت تدر عليه ٠٠٠ ر ١٥ جنيه

كل سنة . فاشترى أرضا على نهر التويد وأقام فوقها قصره المشهور المعروف باسم « أبوتسفوردكورت » Abbotsford Court ولقد زود هذا القصر بكل ما يمكن أن يخطر ببال أو تطمع فيه نفس . وأخذ يشترى من الاراضى التى حول قصره اجزاء حتى كان فى مستطاعه ان يتنزه فى داخل حدود غاباته . وكان قصره مفتوحا لكل زائر ، وعمل سكوت عن ان يحيى فى عصره آداب الضيافة التى هى من صفات أجداده الايقوسيين . فكان يرمى بالاسراف والافراط . ولكنه لم يكن يفعل من شيء سوى انه كان ينفق بسخاء من ايراد لم يكن ليحتاج من هم أو اشفاق فى سبيل الحصول عليه . فان سكوت كان يعمل للفن ، وكان عمله يدر عليه ما يتوافر هو على انفاقه . ولقد كان من حوله فئة من « المساكين » يقاسمونه السعادة ويشاطرونه الهناء ، فلما أن حلت الكارثة قاسموه الأسي وشاطروه مرارة الخذلان .

وكانت الطامة التى نزلت بسكوت فظيعة بشعة . غير أنك مهما بحثت في أسباب الكارثة التى نزلت بالكاتب الايقوسي الكبير فانك لا يسعك الا العجب ، فى حين انك لا تستطيع أن تفهم اسبابها وحقائقها الا فهما مختلطا مهوشاً

قبل أن تحل بسكوت المصيبة بزمان طويل كان قد خالط شخصاً عرفه فى سنيه الدراسية اسمه « جون بلانتين » John Ballantyne كان يكتب جريدة ريفيه صغيرة وينشرها . وكان من أشفاق سكوت عليه ان يدعوه الى ان يهبط ادنبرج ، فكان ذلك سنة ١٨٠٥ وزادت روابطهما توثقا مع كر الأيام . فلما ظهرت رواية ويفرلى عقد سكوت شركة سرية مع جون بلانتين واخيه جيمس والناشر الذى كان ينشر له واسمه كونستابل . فنجحت الشركة نجاحاً عظيما وعادت روايات سكوت على مطابع « بلانتين » بربح عظيم . والظاهر ان كل ما فى الأمر ان النجاح الذى أصابه العبقري الايقوسي والفوائد التى أخذ يجنيها بلانتين من ورائه قد ادارت دفة تفكيره الى نواح خطيرة وافسدت عليه توازن عقله . فاخذت

من ثم مطابع « بلانتين » تتراوح بين أيدى القدر وكما تشاء المصادفات . وكان نجاح سكوت العظيم سبباً فى أن تعمى عيون الذين أحاطوا به واشتركوا معه عن ان ترى الخطر الداهم ، إذ كان وهج النجاح معمياً حقاً . ولقد خيل اليهم أن الثروات المكتنزة فى مخ سكوت لا تنفد لها قوة ولا ينضب لها معين ، وانه قادر على أن يزود الناس بكل ما يشتهون من المنتجات الادبية التى ترضى نزعاتهم وميولهم. غير أن الرجل الذى كان من شأنه أن يقوم بكل هذه الأعباء و يعضد كل هذه المشروعات الخطيرة قد ثقل عليه الحمل وناء به . ومن العجيب أن يظل عملى بلانتين وكونستابل مسابراً للنجاح الظاهرى مدة كالتى استطاع سكوت أن يعضدهما فيها . ومضى أهل الشركة يستغلون الثقة بهم وسكوت عاكف على العمل منهمك فيه . فكان نصيبه من الاكباب على العمل موازٍ فقط لمقدار ما كان يطلب شركاؤه من ثقة الماليين بهم . فلما حلت الكارثة بان لهم عن فرط عظمها ومقدار ثقلها على كواهلهم . وساعد على ذلك أن سنة ١٨٢٥ كانت سنة ازمات مالية عمت الجزر البريطانية من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب . وفر بلانتين واخوه من الميدان وتردى فيه سكوت وحده واذا به مدين من طريق الشركة بمبلغ لا يتجاوز ٠٠٠ ر ١١٧ جنيه انجليزى .

غير ان هذه الكارثة لم تدل على شىء دلالتها على أخلاق الرجل العظيم . فانه لم يتأخر ساعة واحدة ولم يتلكأ برهة . بل اكب على العمل من فوره ليدفع دينه الكبير من عصارة ذهنه . وفر من حوله الشركاء غير المسؤولين و بقى سكوت واحداً فرداً بلا نصير يشق لنفسه الى الفوز طريقا شائكا ملوءا بالمصاعب محفوفا بالملمات ما فيه من أنيس الا ذكريات الماضى تطير احداها تلو الاخرى فى سماء خياله الخصب فلا تزيده الاقوة وصلابة . ولم يأسف سكوت يوما على مافات ، أو أنبه ضميره ساعة على مكرمة أسداها أوهبة اعطاها — بل مضى فى سبيله حتى نضبت عصارة الذهن الأقوى وتحطمت القوى الجسم ، فرقد فى هدأة من متاعب

الحياة بجوار نهر التويد المنساب فى جريانه انسياب خياله الخصب فوق القراطيس ينفث فيها السحر الحلال .

ولو أن سكوت كان ضعيف النفس فاتر العزيمة اذن لاعلن إفلاسه . ولكنه قال قولته المشهورة : « ما لم أمت سوف أشق طريق مرة أخرى وسط هذه العاصفة . وانى لن أستدين فلساً واحداً من أى انسان » . وكان ما شاء سكوت . فانه في أربع سنوات استطاع بعمله أن يدفع ٧٠ ر ٠٠٠ جنيه من دينه العظيم .

وهنا لا يجب أن ننسى أن ننوه لا بصلابة سكوت ولا بقوة عقله بل بالعادات الاخلاقية الثابتة التى نشأ عليها ، بل بشجاعته التى حولته من العمل لمجرد الفن واللذة الى العمل عند الحاجة ليخرج من المعركة فائزا منتصرا وعلى رأسه إكليل من الفخر لم يحز مثله ممن حمل القلم تحت السماء الدنيا كاتب قبله.

للبحث بقية